ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

البعثة الفرنسيسكانية في شمال المغرب
"الرموز والمهام"

د. خالد بويقران
أستاذ "عرضي" التاريخ المعاصر
جامعة السلطان مولاي سليمان
بني ملال – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

ارتكز النظام الفرنسيسكاني الإسباني الذي تم إحداثه سنة ١٢٠٩م من قبل "سان فرانسيسكو ألاسيس"، على وضع أسس لعمل المبشرين، ومنه ما تعلق بعملها بشمال المغرب. إذ منحهم ملوك إسبانيا عبر التاريخ مساعدات مهمة لمحاربة الدين الإسلامي، فعملوا سفراء ومخبرين وجواسيس رفعوا تقارير عن المنطقة الشمالية من المغرب لحكومة مدريد خلال القرن التاسع عشر الميلادي، وكان ذلك تمهيدًا للتدخل الاستعماري الاسباني في المغرب. كما سعت البعثة الفرنسيسكانية إلى استمالة أهالي المنطقة عن طريق تقديم المساعدات المادية والخدمات الطبية والتعليمية ونشر الديانة المسيحية واستكشاف المنطقة، وتكوين نخبة محلية موالية لإسبانيا، تعمل بهيئة المترجمين لدى القنصليات، والبعثات الدبلوماسية الأجنبية، في المدن المغربية، وخاصةً طنجة، أو كذلك بالإدارة المحلية الإسبانية في المغرب الخليفي.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٣ نوفمبر ٢٠١٤
تاريخ قبول النشر: ١٨ فبراير ٢٠١٥

كلمات مفتاحية:

البعثة الفرنسيسكانية، الثقافة المغربية، الاستعمار الإسباني، التبشير المسيحي

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

خالد بويقران. "البعثة الفرنسيسكانية في شمال المغرب: الرموز والمهام".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد الخامس والثلاثون؛ مارس ٢٠١٧. ص٤٩ – ٥٣.

مُقَدِّمَةٌ

كان لزامًا على الدارس لفترة الهجمة الامبريالية الاستعمارية، التي عرفها العالم العربي والاسلامي خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، استحضارَ دور البعثات التبشيرية عمومًا في هذه المرحلة، حيث كانت الإرساليات ذراعًا حيًا ونشيطًا في ذلك. من بين هذه البعثات ركزنا على البعثة الفرنسيسكانية، لأهمية نشاط ممثليها في العالم الإسلامي عمومًا، وشمال المغرب خصوصًا. فقد سجلوا حضورهم في الأديرة والكنائس المنتشرة في تراب الحماية الاسبانية في المنطقة الخليفية، وعملوا ونشطوا كجواسيس، رغمًا عنهم أحيانًا. وخاصةً عندما أصبح وجودهم في تلك المناطق رهين تعاونهم مع الحكام الجدد، وخاصةً بعد الانقلابات العسكرية العديدة التي عرفتها إسبانيا.

كما كانت الدوافع الحقيقية وراء البحث في هذا الموضوع استكشاف الجانب التبشيري في إطار بحث الدكتوراه، كداعم للأليات الاستعمارية الاسبانية بشمال المغرب. كما دفعنا تشعب الموضوع تجاوز الدور الديني، الى الجانب العلمي كذلك، والاجتماعي والصحي. عمدت البعثة الفرنسيسكانية إلى إحداث مؤسسات تعليمية لتثبيت وجودها عن طريق استمالة السكان ومرتادي المدارس إلى أهمية الوجود الإسباني في المنطقة، من منطلق تبرير الوجود بالمنفعة، والأشغال والخدمات التي تقدمها البعثات الإسبانية المتواجدة هناك تحت المظلة الدينية، والخدمات الفرنسيسكانية مثلاً. والتي اتخذت من العمل في المستشفيات والمدارس وتحويل الأديرة المنتشرة في المناطق النائية إلى ملاذ للسكان القاطنين في شمال المغرب.

أولاً: رموز البعثة الفرنسيسكانية في شمال المغرب

١/١- خوسي ماريا لرتشوندي:

هوخوسي ماريا انطونيولرتشوندي José Maria Antonia Lerchundi، ولد يوم ٢٤ فبراير ١٨٣٦ بـ "بيا اوريوغيبوسكو" Billa "Guipuzco" Orio . أصبح راهبًا فرنسيسكانيا في منطقة بيريغوكوينا (Piergo Cuenca). كما درس[١] بدير سان ميغيل دي لا فيكتوريا (San Miguel de la victoria)، إذ فرضت عليه حياته الدينية التنقل بين المدن المغربية لنشر المسيحية بالرباط، والدار البيضاء وأسفي والصويرة. حيث عمل على تقديم المساعدات للفقراء كوسيلة لذلك. ففي ٥ مارس ١٨٦٧، عين الأب لرتشوندي رئيسًا للجماعة الفرنسيسكانية بتطوان، فأصبح من الضروري تعلم اللغة العربية للتعايش مع ساكنة تطوان. لكن لم يسعفه وضعه الصحي في ذلك، مما اضطره إلى تقديم استقالته من منصبه في يوم ٢٦ غشت ١٨٩٦. ورغم مرضه، كرس وقته في دراسة اللغة العربية، وتدوين ملاحظاته الشخصية لتسهيل دراستها على الرهبان من بعده، إذ ألف كتاب Rudimentos del Arabe Vulgar que se Habla en el imperio de Marruecos سنة ١٨٧٢ لهذه الغاية.

منذ سنة ١٨٧٣، اضطر الرجل إلى التوفيق بين مهامه بالبعثة الفرنسيسكانية بتطوان وحرصه على تطوير اللغة العربية ومعرفة الثقافة المغربية، وذلك عن طريق تسطير برنامج لتحقيق طموحاته المعرفية. تطلب انجاز هذا العمل طلب المساعدة من حكومة مدريد، فقدم الاب لرتشوندي مشروعه لوزير الدولة الاسبانية "أليخاندرودي كاسترو" Alejandro de Castro، يطالب فيه بالترخيص والمساعدة المالية لانجاز دراسته حول المدن والمناطق المغربية، التي كانت تعيش فيها الجالية الاسبانية المسلمة، ومعرفة الأعمال الفنية والأركيولوجية والحصول على المخططات[٢] عن المنطقة. لكن عدم حصول الأب لرتشوندي على المساعدة المادية لهذه الحملة الثقافية، أدى إلى فشلها منذ البداية.

حفز الأب " خوسي كول" José Coll" نائب المفوض العام للبعثات الفرنسيسكانية بالأرض المقدسة والمغرب، الأب لرتشوندي على مواصلة عمله،ومنحه جميع صلاحيات النظام الفرنسيسكاني يوم ٨ يونيو١٨٧٦[٣]. كما انه غادر المغرب في يوم ٢ أكتوبر ١٨٧٧ إلى مدريد لإخبار السلطات الاسبانية عن توقف نشاطه الفرنسيسكاني بالمغرب، وطلب التنقل إلى غرناطة Granada لأسباب صحية، والعيش قرب العالم العربي. حيث أنجز مع صديقه " فرانسيسكوخابير سيموني "Francisco Javier Simonet أستاذ اللغة العربية بجامعة غرناطة، " Gestomatia Arabigo Española" الذي نشر سنة ١٨٨١، كما عينه الأب بسينتي البنينانا (Vicente Albinana) المفوض العام للبعثة التبشيرية بروما، أستاذا للاهوت الأخلاقي واللغة العربية بمدرسة البعثة الفرنسيسكانية بـ "سانتياغو" Santiago[٤]، وفي يوم ١١ أكتوبر ١٨٧٨، تم انتخاب الأب لرتشوندي مديرًا لمدارس البعثات الفرنسيسكانية بالأرض المقدسة Tierra de Santa والمغرب[٥] وذلك تكريمًا له، واعترافًا كبيرًا لخدماته وعمله في المجال الديني والثقافي الاستعرابي.

عاد الأب لرتشوندي إلى طنجة من جديد، ونشطت الأعمال التبشيرية للبعثة الفرنسيسكانية كذلك مع قدومه، بواسطة المساعدات المادية التي منحته حكومة مدريد.ففي يوم ٩ أكتوبر ١٨٨٠، وضع الحجر الأول لكنيسة بوريسما Purisima التي حلَّت محل الكنيسة الصغيرة المتواجدة هناك، وتم افتتاحها في يوم ٢ اكتوبر ١٨٨١، وافتتح كذلك مستشفى بالمنطقة لاستمالة الأهالي وتسهيل عمله هناك. كما أن الاهتمام المتزايد للنشاط التبشيري التي تقوم به البعثة الفرنسيسكانية في المجال الطبي والتعليمي، تطلب من الأب لرتشوندي المزيد من التفاني والمجهودات الجبارة، إذ استقال من وظيفته في روما، إلا أنها رفضت ذلك باعتبار التخلي عن المجال الديني العملي التبشيري خطيئة لا تقبل لدى البابوية في روما، ولو تعلق الأمر بالعمل في شمال المغرب.

استدعى الوزير الاسباني بطنجة " الدون خوسي ديوس داندو" Don José Diosdando لرتشوندي Lerchundi لمرافقته يوم ٢ ماي ١٨٨٢، وذلك لاهتمام السلطان المغربي بقضايا الدين المسيحي، والرغبة في معرفة نمط حياة الفرنسيسكانيين الذين عاشوا بالمغرب لقرون. فقدم "لرتشوندي" للمولى الحسن الأول أنشطة البعثة الفرنسيسكانية في المجال الطبي والتعليمي، وتقديم المساعدات للفقراء، مما منحه بعض المنازل والأراضي لبناء مقرات البعثة الفرنسيسكانية بالمغرب. كما إن السلطان مولاي الحسن الأول بعث الأب لرتشوندي في سفارة إلى مدريد في يونيو١٨٨٢ كمترجم من الدرجة الأولى. أدى عمل لرتشوندي الدبلوماسي إلى حصوله على مساعدات مادية من طرف العاهل الاسباني، لترميم " دير اغوستينو" للسيدة دي ريغلا " Convento Agustino de Senora de Regla" كاعتراف آخر من التاج الاسباني بخدمات وكفاءة الأب المستعرب الاسباني لرتشوندي.

٢/١- الأب سريوناندیا (Pedro Hilarión Sarrionandia):

ولد في يوم ٢١ أكتوبر ١٨٦٥ بقرية "غباي" (Gavay)، ببلاد الباسك (Pais Basco)، ساهم في بناء دير شيبيونا[٦] (Convento de chipiona) بـ " قادس" يوم ٢٥ غشت ١٨٨٢، التحق بالبعثة الفرنسيسكانية بشمال المغرب " طنجة، ومليلية وتطوان"، في ٣١ غشت ١٨٩٢،درس اللغات المحلية على يد الأب "لرتشوندي" وتتلمذ عليه، إذ أصبح يتقن اللغة العربية إلى جانب اللهجات اللاتينية واليونانية والفرنسية والريفية وتشلحيت، وشارك في مؤتمر الجزيرة الخضراء سنة ١٩٠٦ كمترجم. ألف الأب سريناندیا كتاب

"قواعد اللغة الريفية" سنة ١٩٠٥، وتمت الطبعة الثانية سنة ١٩٢٥ في مطبعة البعثة الفرنسيسكانية بطنجة، إذ اعتبر هذا الأب الوجود القوي لإسبانيا بمنطقة الريف معتمدا على معرفة اللغة الريفية، وذلك لتسهيل عملها الإستعماري هناك، لكنه غادر المغرب سنة ١٩١١، بعد تنفيذه للأمر الفرنسيسكاني الذي حثه على العودة إلى إسبانيا، حيث توجه إلى "دير ليبريخا "Convento Lebrija في الأندلس "Andalucia"، ثم في يوم ٥ غشت (أغسطس) ١٩١٣ بـ " أموزبيتا "Amozobieta" بالباسك"، إلا أنه فارق الحياة في حادثة سير عن عمر يناهز ٤٨ سنة. لم تتسع فترة حياة هذا الراهب لطموحاته الاستعرابية والديمنية في شمال المغرب، حيث كان وفيا للنهج الذي أسسه ليرتشوندي، وكان الظل الوريف في صحبة هذا الأخير. لقد أخذ الأب "سريوناندیا"، حيزًا مهمًا من اهتمام الباحثين في المجال الديني التبشيري الأسباني في المنطقة الشمالية من المغرب، ولعل طبيعة عمله واهتماماته هي الشاهد لدى من واكب أعماله من المبشرين الفرانسيسكانيين، وكذلك من رجال الدولة الاسبانية وخاصة المكلفة بالعمل الاستعماري.

٣/١- الأب إيبانييز روبليدوإستيبان (Padre Ibáñez Robledo Esteban):

الأب استبان ابنيز رويليده، ولد سنة ١٩١٤ بـ " ارينياس دي ريوبسيورغا Arenillas de Rio Pisuerga" بمنطقة بورغوس Burgos"، إلتحق سنة ١٩٢٥ بالمدرسة الفرنسيسكانية " إستيبا Estepa بـ " إشبيلية". بدأ دراسته في الفلسفة واللاهوت في مدرسة البعثات الفرنسيسكانية بـ " شبيونا " Chipiona"، حيث كونت المبشرين الفرنسيسكانيين الذين بعثوا إلى المغرب وفلسطين. كانت رحلته الأولى المغرب فارًا من تهديدات العسكريين الفرانكويين المتمردين على الجمهورية الثانية الاسبانية، فقرر اللجوء إلى الرباط حيث أنهى الدراسات اللاهوتية. في سنة ١٩٣٧ أصبح راهبًا، وانظم سنة ١٩٣٨ إلى البعثة الكاثوليكية بالناظور، حيث كرَّس وقته لتعلم اللغة والثقافة واكتشاف الريف. نشر " منجد إسباني – ريفي سنة ١٩٤٤"، ومنجد إسباني – باعمراني "لهجة افني" سنة ١٩٥٤، ومنجد اسباني – صنهاجي " لصنهاجة سرير Srair" سنة ١٩٥٩، عاد "بانيز" لإسبانيا سنة ١٩٦٢، وتوفي يوم ٩ يناير ١٩٩٨. بها، حيث كان نموذجًا للرهبان المستعربين الفرانسيسكان. ولازمو القول هنا أن تجربة هذا الرجل عاصرت مرحلتين مختلفتين من تاريخ المغرب المعاصر. أولاً الحماية بشقيها الاسباني بشمال المغرب وتلك الفرنسية بالمنطقة السلطانية. فالمعطى التاريخي الذي وقفت عنده تجربته أضافت الى مسيرته الدينية والاستعرابية، فرصة التكوين في الرباط هروبًا من الانقلابيين الوطنيين الفرنكويين، فالواضح أن الأب ابنييز كان ذو ميول جمهوري، مع التهديد الذي كان ملازمًا له هناك. وهذا ما كان وراء تنقلاته التي ساعدته من جهة على توسيع اطلاعه، وتأليفه لمجموعة مهمة من المؤلفات والقواميس المحلية للثقافة المغربية في شقها الأمازيغي والعربي. وهذا بالطبع اسهام كبير جادت به المرحلة على يد هذا الرجل.

ثانيًا: أعمال البعثة الفرنسيسكانية في شمال المغرب

تجديد البعثة الفرنسيسكانية في المغرب

كان خوسي ماريا لرتشوندي من بين المستعربين والأفريقانين، والمؤرخين الذين كان لهم اهتمام بتاريخ البعثة الفرنسيسكانية بالمغرب، بل أنه تميز بهوية فرنسيسكانية، ساعدته لمزاولة مهمته كمبشر فرنسيسكاني في المغرب، وهوما جعله شخصية بارزة في تاريخ البعثات الفرنسيسكانية ورجل دين وكنيسة بالجهاز الاجتماعي ومجدد لهاته البعثة آنذاك. حيث قام هذا الراهب بمحاولة لحل المشاكل التي كانت تعاني منها البعثة الفرنسيسكانية بمغرب القرن التاسع عشر الميلادي، مع حكومة مدريد حول تعيين المسؤول عن البعثة، وعدم تحديد أوقات العمل للمبشرين بالمغرب، وعدم تمتعه بصلاحيات إرسال هؤلاء المبشرين لإسبانيا لأسباب تتعلق أمنهم وسلامتهم. كما أن عمله المهم كان يعتمد على تنظيم أنشطة البعثة بواسطة وضع قوانين مأخوذة من الأنظمة الأساسية للبعثة. أما فيما يخص الخدمات التي قدمها الأب لرتشوندي للكنيسة فتتجلى في الإشراف على إنشاء مباني جديدة وتحسين مواردها، بمختلف مراكز البعثات. ثم "بناء كنيسة بوريسيما" Iglesia de Purisima التي تم افتتاحها سنة ١٨٨١، وكنيسة " دي لا كابيا دي سان خوان بوتيستا" de la capilla de san Juan Bautista سنة ١٨٨٣ في طنجة" ودار البعثة وكنيسة "دي سان بوينابنتورا" de Buenaventura" بالدار البيضاء سنة ١٨٩٠، وفي سنة ١٨٨٨، تم إعادة نشاط عمل البعثة بالعرائش، وهي خطوة مهمة لا يمكن تجاهلها نظرا للاضطراب الكبير الذي ميز الفترات التي عمل فيها ليرتشوندي ضمن رجالات البعثة.

عمل خوسي لرتشوندي على إعداد قواعد ومفردات باللغة العربية والمدرسة العربية التي تم إنشاءها بتطوان، وكذلك بالتعليم الأولي والثانوي كما ساهم في بناء مستشفيات، ومدرسة الطب، وإحداث المطبعة الاسبانية – العربية، وورش النجارة، وجمعية السيدات دي ماريا انموكولادا " Asociación de Señoras de Maria Inmaculada" بطنجة للمساعدة الاجتماعية، والتعاون مع الوزير موري Moret لإنشاء غرفة للتجارة وتعزيز التواصل البحري، والعلاقات التجارية بين المغرب وإسبانيا. وبناء (٣٥) منزل للأسر المعوزة بالمغرب، وتكوين علاقات الصداقة والتعاون بين المغاربة والإسبان.[٧]

افتتحت البعثة الفرنسيسكانية كنيسة – دار البعثة بتطوان سنة ١٨٦٦، وانتشرت البعثة بالعرائش سنة ١٨٨٨، وكنيسة جديدة ومدرسة سنة ١٩٠١، لكن في سنة ١٩١١، كانت البعثات مؤهلة بالقصر

الكبير وتاوريرت بشكل غير مسبوق. فخلال فترة الحماية الاسبانية قامت الإدارة الاستعمارية الاسبانية بفتح بعثات جديدة بالناظور، أصيلا، واد مارتين، مضيق والشاون.[٨] كما كانت البعثة الفرنسيسكانية تساند الأخوات الفرنسيسكانيات القادمات إلى طنجة سنة ١٨٨٣ لتأسيس مدرسة البنات، التي فتحت أقسامها بعد ثلاث سنوات.

كان الأب "ليرتشوندي" (Lerchundi)[٩] كبير المجددين للبعثة الفرنسيسكانية في المغرب المبنية على أسس إصلاحية[١٠] بمجال التعليم والصحة، فالعمل الصحي للأب (Lerchundi) كان مرتكزًا على الصحة العمومية، إذ أسس أول مستشفى بتقنيات أوروبية سنة ١٨٨٨، ومدرسة للطب يديرها "فليب أوبيلو" (Felipe Ovilo) طبيب عسكري معترف به من طرف المفوضية الاسبانية لتكوين مبشرين مغاربة وأوربيين، على مبادئ حديثة.[١١] أما في المجال التعليمي، فقد عمل الأب (Lerchundi) في الرفع وإعادة تشغيل وتحديث مدارس البعثات الفرنسيسكانية وتطبيق المناهج البيداغوجية الجديدة، اذ ساند (Lerchundi) مدارس "سانتياغو" (Santiago) وتشبيونا (Chipiona) لتشجيع المدرسين بأقسامهم والرفع من مستوى التعليم بالمراكز. كما أنشأت بتطوان مدرسة للتعليم العربي لتكوين المبشرين الإسبان الذين انهوا دراستهم، وكانوا متطوعين بالمفوضية الاسبانية بالمغرب مثل المترجمين والموظفين. فالنجاح الذي حققته هاته المدارس، عبر عنه الوزير الإسباني في المغرب " ألفونصو ميري ديل فال Alfonso Merry del val في تقرير بعثه إلى وزير الدولة في إسبانيا بتاريخ ١١ يناير ١٩٠٩.[١٢]

كانت مدارس طنجة نموذجًا للسياسة التعليمية "لليرتشوندي" (Lerchundi)، إذ كانت المدرسة الفرنسيسكانية في طنجة، منافسة للمدرسة الرابطة الإسرائيلية Alianza Israelita. كما عمل على إدخال اللغات:[١٣] "الانجليزية، الفرنسية، العربية والإسبانية" لتكوين شباب مؤهلين للأعمال التجارية[١٤] في محور جبل طارق – المغرب– إسبانيا.[١٥]

خَاتِمَةٌ

اعتبرت المرحلة الممتدة بين (١٨٨٠- ١٩١٢) مرحلة مهمة، سعت خلالها إسبانيا إلى التعرف على شمال المغرب، ومهدت لاستعماره، فكانت الأعمال التي قامت بها البعثة الفرنسيسكانية الإسبانية في الجانب التعليمي، والإستشفائي، وتقديم المساعدات للأسر المعوزة، أحد الآليات لاستمالة الأهالي ونشر الديانة المسيحية. وقدمت حكومة مدريد مساعدات مادية لـ "خوسي ماريا لرتشوندي" لمزاولة مهمته كمبشر، ومستكشف للمغرب، وجمعه معلومات عن الساكنة المحلية. ولعل بحثنا في هذا الموضوع انعكاس لوعي بضرورة الوقوف عند وجوه بارزة في الحملة الاستعمارية الإسبانية في شقها التبشيري الفرنسيسكاني الخفي أحيانًا، أو المغلف بأنشطة وشعارات مضللة في أحيان أخرى. وللعلم فقد اجتهدت الشخصيات، التي اتخذها البحث نموذجًا عمليًا للدراسة، في ميادين مختلفة لإكساب الدور العقدي جانبًا من المنفعة والفائدة للحملة الاستعمارية الإسبانية على المغرب كنموذج، استكشافًا وغزوًا.

الهَوامِشُ:

(1) Gaspar calvo, la restauración de la orden franciscana en España "1836-1856", Santiago de compostela, 1985, PP. 163-164.
(2) José María López, El padre Lerchundi, PP., 48-49.
(3) Archivo provincial de los Franciscanos de santigo, Legajo 22.
(4) Francisco María Fernando, Apuntes Historicos del colegio de misiones para tierra santa y Marruecos de santiago de compostela, santiago, 1914, pp. 274-281.
(5) Ibíd., p.282.
(6) Benito Pérez Galdós, Anales Galdosianos, University of Pittsburgh., 1968,p.89.
(7) Archivo de la misión Franciscana de Tánger, Leg, IX, n. 17, 1.
(8) Antonio Rubio Villalta, Uixan, un pueblo minero de España en Marruecos evocaciones y testinonios, en el vigia de Tierra, 1998 – 1999, n° 4 – 5, pp. 121-152.
(9) Enciclopedia Universal Ilustrada Espasa – calpe, Madrid, 1916, vol., XXX, p.121.
(10) Ramon Lourido Diaz, Marruecos y el padre lerchundi, editorial Mapfre, Madrid, 1996, pp. 281 – 325.
(11) Ibíd.
(12) Informe remitido por el ministro de España en Marruecos Alfonso Merry del val al Ministro de Estado el 11 de enero de 1909, AGA, sección África, dirección General de Marruecos y colonias : sección de educación, caja, M – 324,exp. 6.
(13) Anejo del Despacho n° 985 de 10 de junio de 1910 remitido por fr. Francisco Maria cervera de la legación de España en Marruecos en Larach al Exemo, sr. Ministro de Estado, AGA, sección África, Dirección general de Marruecos y colonias: sección educación, caja M-330, Exp.1.
(14) Anexo 5 del Despacho n° 62 de enero de 1909 sobre Asignaturas que cursan los alumnos de la enseñanza en las escuelas de la misión de Tánger, dirigidas por los R.R.P.P. Misioneros y distribución de las mismas « remitido por la legación de España en Marruecos al Exemo, sr, Ministro de Estado, AGA, sección África, dirección general de Marruecos y colonias : sección de educación, caja M- 324, Exp, 6.
(15) Ibíd.